

الديمقراطية ومحو الأمية فى مصر

أ. بشير صقر

الثقافة الجماهيرية - القاهرة

"إذا فكرت سنة للأمام... فأنثر بذرة"

إذا فكرت عشر سنوات للأمام... فازرع شجرة

وإذا فكرت مائة سنة للأمام... فعلم الناس"

"حكمة صينية من ٣٠٠ سنة ق.م."

مقدمة:

عندما يتطرق الحديث لقضية محو الأمية فى مصر فى جانبها النظرى أو التطبيقى - يطرح السؤال التالى نفسه بالحاج: لماذا فشلت تجارب محو الأمية السابقة؟ ولا يمكن البدء فى تناول القضية من أى من جوانبها، دون الإجابة عن هذا السؤال.. حيث إن الرد العلمى عليه يشكل المدخل المباشر والصحيح والوحيد لتناول القضية.

وفى مصر بل فى المنطقة العربية يمكن الرد على هذا السؤال بإجابات متعددة ولكنها جميعاً تشترك فى شىء واحد: هو أن التشخيص الذى قامت على أساسه حملات محو الأمية كان مغلوفاً، ويختزل قضية الأمية فى الجهل بالقراءة والكتابة، وبناء على هذا الاختزال وذلك التشخيص المغلوطة، فإن العلاج المتمثل فى حملات محو الأمية

يكون خاطئاً بالطبيعة.. ناهيك عن أن توارث الفشل واستمراره لسنوات طويلة.. يولد جباطاً شديداً لدى المهتمين بالقضية، ويتخطى حدوده؛ ليتحول إلى لا مبالاة عميقة. رافتقار للجدية فى تنفيذ تلك الحملات.. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإنه بالممارسة، تم الوصول إلى أن من محيت أميتهم ارتدوا مرة أخرى للأمية؛ نظراً لعدم استخدامهم ما تعلموه فى تطوير أنفسهم وتحسين أوضاعهم الاجتماعية.. الخ.

ومن ناحية ثالثة، فإن من أدركوا أن مفهوم الأمية يتجاوز حدوده الضيقة تلك التى تقصره على الجهل بالأبجدية، قد ارتدوا فى الممارسة العملية إلى الأرض نفسها، التى تقف عليها التجارب التقليدية بتشخيصها المغلوط.

لما كان الفرد الأمى جزءاً من المجتمع، والمجتمع ليس شيئاً واحداً أو كتلة واحدة، (ولما كان كل جزء فى المجتمع وكل مجموعة ليس شيئاً واحداً أو كتلة واحدة)، ولما كان كل جزء فى المجتمع، وكل مجموعة من الناس لها سماتها الخاصة وتحكمها قوانينها الخاصة، التى تخضع فى نهاية الأمر للقوانين الأساسية^(١) التى تحكم المجتمع.. فإن تعاملنا مع قضية الأمية يجب أن يضع فى اعتباره كل هذه الأمور فى ارتباطها ببعضها وإلا وقع فى الانتقائية.. التى تعنى اختيارها لجانب واحد من جوانب القضية المطروحة للتعامل معه دون بقية الجوانب.. ومن ثم تتجاهل معطيات كثيرة فى الواقع، ما كان لها أن تتجاهلها، إذا ما حرصت على أن تصل إلى أفضل الحلول.. وأكثرها موضوعية.

فهل يمكن لأى متخصص فى محو الأمية، عندما يبحث هذه القضية أن يتعامل مع الأميين من هذه الناحية فقط (جهلهم بالأبجدية)، وإذا كان ذلك كذلك، فكيف ستكون النتيجة؟ أنها حقاً ستكون الفشل.. فإن الخطأ فى التشخيص يودى حتماً إلى خطأ فى العلاج.. ناهيك عن المضاعفات.

ومن هنا اكتسب الكفاح ضد الأمية هذه السمعة السيئة واللامبالاة الشديدة بمجرد سماع أى عبارة عنها، ومن هنا كان ولوج هذا المضمار محفوفاً بالمخاطر.. فليس هو بالأرض البكر، التى تثبت أى بذرة حية توضع فيها، ولكنها للأسف تعرضت لكثير من

(١) القوانين الموضوعية.

العبث، الذى أفقد المحاولات الجديدة الكثير من مزايا التجربة الأولى وتدفقها، ولا هو استفاد من الجوانب الايجابية لتجارب سابقة، وبنى عليها وراكم الخبرة والإنجاز.. باختصار فالأمية بمعناها الواسع تتضمن جوانب ثلاث تتداخل وتتشابك وتتحقق فى الفرد (أبدياً ووظيفياً وثقافياً)، حيث يجهل القراءة والكتابة، ويقتصر اتصاله بالمحيطين به على الطريقة الشفهية.. كذلك فهو من الناحية الوظيفية، لا يجيد أى حرفة أو مهنة تقريباً؛ بل يعتمد فى التعامل فى محيطه للحصول على احتياجاته المعيشية على قوة عضلاته فقط، دون أن يكون ماهراً فى إنتاج مادي أو ذهني أو غيره، أيضاً فهو من ناحية ثالثة يجهل الآلية التى تسير مجتمعه، والتي تحكمه كفرد ضمن هذا المجتمع.. كما يجهل كيف يمكنه أن يلعب دوره؛ من أجل المساهمة فى تغيير واقعه حسب قوانين التطور التاريخي لا ضدها.

الأمية فى مصر وأسبابها:

بناء على المقدمة السابقة، فإن تحديد حجم الأمية فى مصر يحتاج إلى معيار مختلف عما هو متبع فى حصرها بشكل تقليدى.. ولذلك يمكن أن نحدد بداية أن الأمية الثقافية تجتاح أغلب أفراد المجتمع، وتتجاوز بذلك الأمية الأبجدية والوظيفية فى حجمها وفى آثارها الضارة.. وعموماً يمكن القول بأن الأمية الأبجدية تبلغ ٥٦% من المواطنين فوق عشر سنوات.. وهى تتناقص من الناحية النسبية عاماً بعد الآخر، ولكن أعداد الأميين المطلقة تزايد نظراً لمعدل تزايد السكان الكبير.

أما عن أسباب الأمية، فتمثل فى:

١- ضعف استيعاب الأطفال فى سن الالتزام:

حيث كانت نسبة الاستيعاب فى عام ١٩٥٢ حوالى ٤٧%، ارتفعت عام ١٩٦٦ إلى ٧٨% ثم توقفت حتى عام ١٩٧٣، لتصل إلى ٨٢,٢% عام ١٩٧٩^(١).

٢- التسرب من المدارس الابتدائية:

أى بعد دخول الأطفال المدرسة يبدأ تسربهم منها، وهو يشكل مع ضعف الاستيعاب وجهين لعملة واحدة.

(١) رئاسة الجمهورية، المجالس القومية المتخصصة إصلاح التعليم الابتدائي، يوليو ٧٩ ص ٧١.

٣ - الارتداد للأمية:

وذلك لمن لم يستكملوا تعليمهم، ولم يلتحقوا بالمرحلة ما بعد الابتدائية.

٤ - التخلف الاقتصادى والاجتماعى:

حيث إن احتياج الأسر الفقيرة لعمل أبنائها فى سن مبكرة يدفعها لمنعهم من التعليم، كذلك فإن انخفاض المستوى الاجتماعى والثقافى يقلل من إحساس الآباء بخطورة عدم تعليم الأبناء، ويربى فى النشء عددًا من الخصال والصفات الملازمة للبطالة أو للتهوين من شأن التعليم والثقافة، ويجعلهم فريسة لجملة من الأفكار المتخلفة والغيبية وللانحراف ولانخفاض كفاءتهم الإنتاجية لمن يجد منهم عملاً.. وبتزايد أعدادهم يشكلون عبئاً شديداً الوطأة، يدفع المجتمع باستمرار باتجاه التخلف الفكرى والثقافى والتردى الاقتصادى والاجتماعى، ومن ثم الخضوع والتبعية السياسية للقوى المعادية لتقدم الإنسان فى الداخل والخارج.

هذا وتشكل العوامل الثلاثة الأولى، ضعف الاستيعاب والتسرب والارتداد للأمية روافد ثلاث، تمد نهر الأمية بمياهه المستمرة، ويمثل العامل الرابع (التخلف الاقتصادى الاجتماعى) إطاراً وأساساً لتلك الروافد الثلاث.

ولما كان الحديث عن أسباب الأمية، بمعناها الواسع، يعنى حديثاً عن أسباب التخلف الاقتصادى والاجتماعى، التى تسم مجتمعات العالم الثالث، والتى تدفعنا دفعاً لنقاشها بشكل شامل؛ بغرض تحديد جملة الأسباب التاريخية التى أدت إلى وضعها الراهن، والتى لا يتسع المجال لطرحها، فإننا سوف نذكر بإيجاز: أن سقوط الكثير من هذه المجتمعات فى قبضة الاستعمار الكولونيالى لعقود طويلة، واستنزاف الكثير من مواردها الطبيعية والبشرية وتسييد الفكر والثقافة الاستعمارية، وربط الكثير منها بالأحلاف العسكرية الاستعمارية، وتمزيقها إلى أقاليم وطوائف متناحرة وخلق فئة أرستقراطية محلية تعمل لحساب الاستعمار، وتتجه نهجه وتفكر وتحيا بطريقته، وتكون أداة له يحكم بها بعد رحيله. ثم إلحاق السوق القومى بعد ذلك بالسوق الاستعمارى العالمى، بناء على قواعد التقسيم الدولى للعمل؛ بحيث لا تجد فكاكاً من هيمنته السياسية والاقتصادية، وتتعد بذلك كل محاولات التنمية فى البلاد النامية.. وتضطر إلى

الاستدانة والتعامل مع البنوك الدولية؛ من أجل تسيير عجلة التنمية فلا تفلت من أسرار هذه الحلقة الجهنمية (حلقة الديون المتزايدة)، وهكذا.. وعليه فجدور التخلف الاقتصادي والاجتماعي لبلدان العالم الثالث عميقة وقديمة.. ودور الاستعمار في تأييد أوضاعها ثابت وجلى، ومن هنا كان التخلف الثقافي والتدهور الاقتصادي والاجتماعي والتبعية السياسية سمات بارزة لها.

إن الإبقاء على أنماط الإنتاج المتخلفة في بلاد العالم الثالث (بما يعنيه هذا من إبقاء على علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج في حالة من التذنى والبدائية وحصار تطورها إلا في أضيق الحدود، وبالدرجة التي لاتحدث تغييرات جوهرية في البنية الاقتصادية والاجتماعية، بل تحدث تشويهات خطيرة، وبما يتناسب مع الإبقاء على هذه المجتمعات في حالة من الارتباط بمجموعة البلدان، التي كانت تحتلها) هو هدف يسعى الغرب الاستعماري للحفاظ عليه. ولا تترك التغييرات التي تطرأ على هذه المجتمعات، إلا آثاراً سلبية على اقتصادها (حيث الديون وفوائدها وأقساطها وجدولتها وإعادة الجدولة، وتدخل صندوق النقد الدولي ببرامج التقشف، وتدابير رفع الدعم عن السلع الضرورية). وعلى وسائل إنتاجها (حيث التبعية التكنولوجية للخارج، دون مراعاة لاحتياجات الاقتصاد القومي الفعلية). وعلى القوى المنتجة (حيث البطالة.. والهجرة للخارج).

كما تشمل هذه الآثار الأوضاع الاجتماعية؛ حيث تسود أنماط جديدة من الاستهلاك الترفي وترتفع الأسعار، ويتزايد الفقر في جانب والثراء في جانب آخر، وتتفكك عرى الأسرة، وتدهور الأخلاق.. إلخ، ولا تنجو الثقافة من المصير نفسه؛ حيث تتغير أنماط القيم، فيقل الاهتمام بالثقافة والفنون الجادة والتعليم، وتسود قيم الفردية والتعصب والأنانية، وتقليد أنماط الاستهلاك الترفيه في الغرب، ويضعف الاهتمام بالتراث والتاريخ القومي وبالأبطال الوطنيين، وبدور الفرد في تغيير مجتمعه وتطويره والغيرة على أمته، ويضعف الانتماء للأرض والوطن.. وهكذا وفي هذا المناخ.. تلعب روافد الأمية الثلاث دورها في مقاومة الأمية، وتساهم الأمية بدورها في مزيد من تعميق التخلف. فهي أحد مظاهره، وهي أيضاً سبب من أسباب استمراره. إن الشروط التي

أنتجت الأمية بجوانبها المتعددة (الأبجدية، والوظيفية، والثقافية) ماثلة فى أسس المجتمعات المتخلفة، ومن هنا فإن استئصال الشروط التى أنتجتها.. شروط التخلف.

وعليه.. فإن الجهود المبذولة فى هذا السياق محكومة بتلك الشروط وبإمكانية الكفاح ضدها؛ أى إن الكفاح ضد الأمية بجوانبها المتعددة لابد وأن يرتفق بكفاح أشمل فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ لكى يتم تحرير الأميين من أميتهم بشكل كامل فى أى مجتمع من المجتمعات المتخلفة.

وإذا ما طرح السؤال: وما جدوى الجهود المبذولة لمحو الأمية إذا طالما كان استئصالها بشكل كامل يتحدد خارج الإطار الذى نعمل فيه.. حتى ولو استندت جهودنا إلى التشخيص العلمى لقضية الأمية؟ نقول.. إن تلك الجهود سوف تلعب دورها فى تقليص الأمية، وسنحفر كثيراً من أمثالنا لمشاركتنا هذا الدور، سواء فى مجال التعليم أو العلاج أو الإسكان أو الإنتاج أو الثقافة.. إلخ، وستسهم بالتالى فى تعديل رؤى الكثيرين فى هذه المجالات، وتخلق مناخاً إيجابياً يكسر روح السلبية.

العلوم الحديثة والحضارة الجديدة وعلاقتها بتعليم الكبار:

لعب تطور العلوم دوره فى خلق الحضارة الراهنة "التى تختلف عن كل الحضارات التى سبقتها؛ فهى تنحو لأن تكون حضارة عالمية واحدة"^(٣)، وعلى الرغم من أنها لم تصل حتى اليوم إلى هذا الحد، فإنها تسعى لأن تكون حضارة مطلقة لا تنتمى لجنس أو دين عكس الحضارات القديمة.

وفى الوقت الذى تركز فيه على معطيات العلوم الحديثة، التى تتمتع بصفة الحياد فإنها حضارة غير محايدة لأن بعض العلوم عند التطبيق تتخذ وجهة مبدعها وتتطبع بسمات المجتمعات التى اكتشفتها وبرغبات المتحكمين فيها.. ولذلك فهى تتضمن قيماً تغير الكثير من المفاهيم الاجتماعية القديمة، وتؤثر على المجتمعات النامية المستهلكة لها لأنها ليست صانعتها ولا تملك سوى شكلها؛ أى لا تملك روحها أو محتواها.. ومن هنا كانت الفجوة الحضارية بين منتجى الحضارة ومستهلكيها واسعة.

(٣) د. محى الدين صابر: مقال التحديات الحضارية وتعليم الكبار - كتاب علم تعليم الكبار - الجزء الأول ص

أما الدعاوى الراجحة هذه الأيام فى المجتمعات النامية المستهلكة لحضارة الغرب، والتي ترى أن تقدمها الحضارى يلزمها بالسير خلف منتجى الحضارة، فلا تعنى سوى أن الفوارق بينهما هى مجرد فوارق كمية؛ أى فوارق على الطريق نفسه.. ولا يبقى لتضييقها سوى الإسراع بمعدل العدو خلف منتجى الحضارة، واقتفاء أثرهم دون النظر إلى خصوصية تاريخها وتراثها وشروطها الاجتماعية والاقتصادية الراهنة.

إنها باختصار دعوة للسير فى الفلك نفسه.. والوصول إلى النتيجة نفسها إلى المآزق، ولكن مع الفارق.

إن هذه الحضارة وفى مقدمتها الثورة التكنولوجية فى وسائل الاتصال الجماهيرية قد لعبت دوراً رئيسياً فى تجاوز أساليب التعليم القديمة، الذى ضاق عن استيعاب مفرداتها ومتطلباتها كما ونوعاً، وبالرغم من أن التعليم النمطى (التقليدى) قبل ذلك قد أسهم بقوة فى التقدم العلمى والاجتماعى والحضارى فى مواجهة البنية التقليدية للمجتمع، إلا أن الوضع قد تغير الآن بدرجة كبيرة لأسباب كثيرة، منها:

- إن تقدم العلوم المتسارع قد ضيق المسافة الزمنية التى تفصل بين الاكتشاف العلمى وتطبيقه العلمى.

- وإن المدرسة كنموذج للتعليم النمطى لا تعدو أن تكون مجرد أداة فنية فى وقت يتطلب فيه التغيير الحضارى وتنمية المجتمع المتخلف عملية سياسية شاملة، فالمدرسة ليست تحررية بطبيعتها، ولن تكون كذلك إلا فى ظل مجتمع خال من الاستغلال والقهر.

- وإنها انعكاس للنظام الاجتماعى القائم، فهى كأي مؤسسة نظامية مستقرة لا تسعى للاستجابة للظروف المتغيرة، بقدر ما تسعى لإخضاع الظروف الخارجية لمنطقها.

لكل ذلك، كان على المدرسين لهذه التغيرات الاستجابة السريعة لبناء تعليمى جديد يتجاوز التعليم النمطى ولا يحل محله، يقوم تصورات ولا يستبعد إجابياته، ويهضم هذه المعطيات الجديدة للحياة المعاصرة ويدمجها فى أدواته.

هذا البناء هو "التعليم المستمر، تعليم المستقبل"، الذى يمثل تعليم الكبار أحد وجهيه، فهو مع التعليم النمطى (تعليم الصغار) يشكلان ضفتين لنهر التعليم.. الذى

يخلق "المجتمع المتعلم المعلم"^(٤) وهذا التعليم المستمر لا تحكمه المعايير والقوانين نفسها، التى تحكم التعليم النمطى؛ ولذلك فهو أكثر مرونة وتطوراً واستجابة للتغيير.

وإزاء طوفان الحضارة الحديثة الذى تغمرنا به وسائل الاتصال الجماهيرى المتطورة (إذاعة، تلفزيون، فيديو، صحافة، سينما.. إلخ)، لابد من مصفاة نقدية تستثمر إيجابياته وتوقف سلبياته، وتسلم الجمهور فى البلاد النامية ضد مخاطره وأضراره.

إن هذه الحضارة التى عبرت الحدود القديمة، دون جواز للمرور، قد اخترقت جدران المنازل وسنائرهما ووصلت إلى عقول الصغار ووجدان الكبار، ونقلت المواطن فى لمح البصر من منزله إلى قارات وكواكب أخرى أو نقلتها إليه، ولذلك لا نملك إزاءها إلا سلاحاً نقدياً حازماً، يتمثل فى فهم علمى لمنطق هذه الحضارة وللشروط التى أوجدتها وكذا آفاق تطورها.. فى الوقت نفسه الذى يتوجب فيه الإمام بأوضاع مجتمعنا وتاريخه وتراثه وتطوره واحتياجاته المقبلة والراهنة.. إلخ؛ حتى لا يلتهمنا ذلك الطوفان أو يدفعنا إلى غير ما نريد أو لعكس ما نبتغى. لذلك كان الجانب الثقافى فى عملية محو الأمية بالغ الخطورة؛ فهو يلعب دوره (من خلال أساليب الحوار والمناقشة بن المعلم والأميين) فى عملية الفرز تلك لما تدفعه لنا وسائل الاتصال الجماهيرية المتطورة، بحيث تزود الأمى بزاد من المعرفة والخبرة وفعاليتيه فى المجتمع.. إلخ.

عن تجارب محو الأمية فى مصر:

نبذة تاريخية:

بدأت فكرة محو الأمية فى مصر إبان الثورة الوطنية فى عام ١٩١٩ حيث بدأها كل من إسماعيل القبانى، وعبدالرزاق السنهورى، ومحمود فهمى النقراشى فى محافظة أسيوط، وقد تضمن دستور ١٩٢٣ نصاً خاصاً بذلك، وفى عام ١٩٢٥ صدر قانون لمحو الأمية، وفى عام ١٩٤٣ شكل فؤاد سراج الدين وزير الشؤون الاجتماعية لجنة للإشراف على محو الأمية ونشر الثقافة الشعبية، وصدر القانون رقم ١١٠ لسنة ١٩٤٤، وألزم به الذكور فى سن ١٥-٤٥ سنة، وفى عام ١٩٤٦ صدر القانون رقم ١٢٨، الذى تحولت بمقتضاه المهمة إلى وزارة المعارف العمومية.

(٤) المرجع السابق.

وفى عام ١٩٧٠ صدر القانون، رقم ٦٧، الذى ينص على (أن تعليم الكبار ومحو الأمية مسئولية قومية سياسية، والهدف منه تعليم المواطنين)^(٥) وألزم بها الاتحاد الاشتراكى، وعدداً من الوزارات والهيئات الرسمية والشعبية، وفى عام ١٩٧٣-١٩٧٤ قام المجلس الأعلى لتعليم الكبار ومحو الأمية بالتخطيط لمحو الأمية فى ٧ سنوات لمن تتراوح أعمارهم بين ١٠-٣٥ سنة؛ حيث بلغت أعدادهم ٥,٤ مليون مواطن من الجنسين، وقدرت التكاليف بحوالى ١٤ مليون جنيه.. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى نشأت فى وزارة المعارف العمومية جامعة للثقافة الشعبية بالقاهرة، بقرار رقم ٦٥٤٥ فى عام ١٩٤٥ إبان ولاية الدكتور السنهورى.. وكانت الجامعة مؤسسة ثقافية مفتوحة للمواطنين ومتحررة من قيود السن والمؤهلات، وقد زاد الإقبال عليها؛ مما دفع بوزير المعارف لتحويلها إلى (مؤسسة عامة للثقافة الشعبية) لا تقتصر على مدينة القاهرة، بل تعدتها إلى المدن الكبرى بمصر، واتسع نشاطها وتنوع بحيث ضمت عشرين شعبة دراسية بكل منها برامج مختلفة وفروع متعددة، ومما لفت النظر الإقبال الواضح للإناث عليها، ويقول د. أحمد حسن عبيد (إن المرونة التى أتسمت بها هذه المؤسسة كانت عاملاً رئيسياً فى نجاحها؛ حيث كانت تقدم للجمهور ما يريه فى حدود المستوى الذى يناسبه)^(٦).

الرؤية التقليدية لمحو الأمية:

كانت الرؤية التى حكمت البحث عن أسباب الأمية وأثرها وكيفية علاجها قد تراوحت بين موقفين: الأول هو الموقف التقليدى.. الذى يرى أن الأميين مواطنون أو منتجون محدودو الإمكانيات والمواهب، ويجب النهوض بهم من هذه الناحية (القراءة والكتابة) بمحو أميتهم الأبجدية؛ ليصيروا مواطنين أو منتجين صالحين.. ولا يرى ضرورة تغيير أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، بل يرى الإبقاء عليها وإدانتها، أو يرى فيهم قوى غير منتجة، يجتهد فى أحسن الأحوال لتحويلهم إلى منتجين، يدخلون فى الآلية الاجتماعية الموجودة بشكل أكثر فاعلية؛ حتى لا يشكلوا عبئاً على المجتمع.

(٥) علم تعليم الكبار (الجزء الأول عام ١٩٧٦) ص ١٣٩.

(٦) أحمد حسن عبيد: تعليم الكبار - الجزء الأول - مقال تعليم الكبار عبر العصور ص ١٣٩.

إن هذه الرؤية التقليدية ينبع خطؤها من كونها وحيدة الجانب انتقائية.. تركز على أحد جوانب الأمية.. ونعتبره الجانب الوحيد متوهمة أنها بتناوله تكون قد تناولت القضية من جذورها.. وفى الممارسة يتم اكتشاف الخطأ.. لكن بعد أن يكون قد ترك آثاره السالبة على القائمين بالتجربة، وعلى الأميين، وعلى القضية برمتها.. لقد سادت هذه الرؤية فى مصر والبلاد العربية طويلاً.. وتبنتها وزارة المعارف العمومية (التربية والتعليم بعد ذلك) والمجلس الأعلى لتعليم الكبار ومحو الأمية، وعديد من الهيئات والمؤسسات، التى تولت مهمة الكفاح ضد الأمية طيلة عشرات السنوات، وخرجت بنتائج شديدة السلبية.

الرؤية غير التقليدية:

ولقد قامت بعض المؤسسات التربوية بتشخيص مغاير لقضية الأمية، واعتبرتها مشكلة سياسية واجتماعية، لكن الحلول التى طرحتها فى الممارسة لم تنأى بها بعيداً عن الرؤية التقليدية السابقة، بل عادت بها للأرض نفسها، التى وقفت عليها التجارب التقليدية.. ولايعنى ذلك أن الاكتفاء بتشخيص الأمية، بشكل عمومى، يجيب عن جملة الشروط التى أنتجتها، أو يحدد بالتالى أساليب وأدوات الكفاح ضدها.. وحدود النتائج التى يتوقع الوصول إليها.. باختصار، فالإجابة العمومية على أسئلة تحتاج فهماً عميقاً ومفصلاً فى مثل هذه الأمور يساوى عدم الإجابة عليها.. ولا يقتنع من القضية إلا بظاهرها، ويعتبرها مجرد قضية تقنية لا تتجاوز حدود التعليم هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإن اللجنة المسكونية لمحو الأمية التى تعتبر الأمية قضية سياسية اجتماعية، بالأساس، ترى رأياً آخر، ترى فى الأمى أنه أمى كادح، يلزم إشراكه فى تغيير واقعه، وذلك بتغيير نفسه.

إنها لا تسعى لاستئصال الجهل بأبجدية اللغة العربية فى حد ذاته بقدر "ما تسمى لتحرير ذات الانسان"، الذى يتضمن بالطبيعة تعليمه أوليات اللغة، وتربط بين تعليم اللغة والتثقيف بالمعارف العامة، وتتوجه بتوحيته من أجل التحرر؛ لذلك كان شعارها الشهير "تعلم.. تحرر" مصداقاً لرؤية غير تقليدية للقضية.

إنها لا ترى فيها مجرد تكنيكية وتقول "إن الخبرة المعاشة تؤكد أن أغلب الأميين الذين درسوا بالاسلوب التقليدى يرتدون للأمية مرة أخرى بعد فترة قصيرة؛ لأن عملية التعليم لم تغير من أسلوب حياتهم، ولم تضيف إليهم شيئاً جديداً، ومن هنا فإن عملية التعليم القائمة على التلقين تحول التفكير الإنسانى إلى قوالب جامدة، تعزل الإنسان عن واقعة؛ ليعيش فى قوالب جديدة بدلاً عن القوالب القديمة"^(٧) ولذلك رأت اللجنة أن الأمر يتطلب (اتباع أسلوب يشارك فيه الأمى من جانبه فى التفاعل مع واقعه من أجل تغييره. وذلك بتغيير نفسه، بأن يتعود التعبير عن أفكاره وآرائه.. الأمر الذى يغير التاريخ لصالح الشعوب، وليس لصالح الفئات المميزة اجتماعياً)^(٨).

ويتقدم التقرير فى تحديده قائلاً (إن دخول الجماهير العريضة بوعى وبروح النقد البناء تحقق الديمقراطية، وتمنع تسلط طبقات على غيرها؛ مما يؤدي إلى تكافؤ الفرص وتنمية المجتمع)^(٩).

وهكذا تسعى اللجنة المسكونية إلى تغيير أسلوب حياة الأميين، وإخراج تفكيرهم بعيداً عن القوالب الجامدة، التى طبعوا عليها من واقع حياتهم التقليدية بما فيها أسلوب التلقين، وترى أن تثقيف الأميين بمشكلاتهم وطرق حلها، وربط ذلك بتعلم الحروف الأبجدية يساهم فى تحرير الأميين؛ أى إنها ترى أن تغيير واقع الأمى يتم بتغيير نفسه، الذى يتحقق بتدريبه على التعبير عن آرائه وأفكاره.. ولذلك كان (خروج الأمى من الأطر، التى تربطه بالواقع الذى أدى إلى أميته وتخلفه لن يتأتى إلا بالممارسة للفكر الناقد تدريباً)^(١٠).

ومن هنا كان اعتبار "الدارس أمياً أولاً وكادحاً ثانياً" يعبر بدقة عن جوهر فهمهم للقضية، وهنا مكن الخطأ.

إن الدارس فى فصول محو الأمية كادح بالدرجة الأولى ينبغى تغيير وضعيته الاجتماعية، وهو أمى بالتالى يلزم محو أميته.. عملية الكدح هى فى الأساس وصفة الأمية

(٧) تقرير اللجنة المسكونية لمحو الأمية. كتاب المنسق.

(٨) المرجع نفسه.

(٩) المرجع نفسه.

(١٠) المرجع السابق.

مترتبة عليها - فهو أسمى لأنه كادح وليس العكس (إن الأميين قوى اجتماعية كادحة، دفعت بهم آلية المجتمع إلى القاع من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. ومن ثم، فهم مع غيرهم يشكلون أغلبية كبيرة فى المجتمع، والهدف المرجو من التعامل معهم يلزمنا بإدراك هويتهم تلك.. ويحتم التعامل معهم من جميع جوانب وضعهم فى المجتمع ودورهم فيه.. وبشكل خاص من أبرز هذه الجوانب)^(١١).

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن خروج الأمى من الأطر التى تربطه بواقعة لا يتأتى من مجرد ممارسة الفكر الناقد.. فذلك مجرد وجه من وجوه العملية، التى تتناول الأمى كموضوع للكفاح ضد جوانب تخلفه، وتتعامل معه كأداة لهذا الكفاح، الذى لن يتم بشكل حقيقى دونها، ودون أن يشد نصلها لتكون فعالة ومؤثرة.

أما عن تدرج عملية النقد، فلا يمكن فهمها إلا فى سياق رؤية اللجنة المسكونية بكاملها لعملية تغيير الأمى - إلا وهى تعارض بعض القيم التثقيفية مع بعضها الآخر، والذى يدل على سلوكها العملى فى فصول محو الأمية.

(إن الرؤية غير التقليدية التى تطرحها اللجنة المسكونية لمحو الأمية، تبدو وللوهلة الأولى وللعين غير المدققة أنها ممسكة بلب المشكلة متناولة لجوهرها، وهى فى الحقيقة غير ذلك؛ لأنها تطمس كثيراً من أبعادها، وتطرح كثيراً من جوانبها بطريقة عمومية، تضع غمامة كثيفة على كثير من عناصرها الحقيقية؛ بوضع القضية على رأسها معتبرة أن الأمى هو أسمى أولاً وكادح بالدرجة الثانية..)^(١٢).

الرؤية العلمية لقضية محو الأمية:

تتمثل هذه الرؤية فى إدراك أن الأمى كادح أولاً وأسمى بالتالى.. لأنه عضو فى المجتمع، له دوره فى الآلة الاجتماعية، وفى العملية الإنتاجية، ومن ذلك اكتسب صفة المواطن وصفة الكدح.. وهو مع أمثاله يشكلون فئة أو طبقة اجتماعية لها سماتها

(١١) بشير صقر: رؤية نقدية لوجهة نظر اللجنة المسكونية لمحو الأمية - جهاز تنظيم الأسرة والسكان - مشروع التنمية الريفية ببرج نور الحمص ١٩٧٩.

(١٢) كتاب المعلم (أقرأ.. أتعلم) (أقدم) جهاز تنظيم الأسرة والسكان مشروع التنمية الريفية، ببرج نور الحمص،

وتقلها ودورها فى المجتمع وتحكمها قوانينها الخاصة (الموضوعية وليست التشريعية) والتي هى جزء من قوانين المجتمع ككل، وأن صفة الأمية مترتبة على صفة الكدح، والتي اكتسبها نتيجة وضعه الاجتماعى الذى ذكرناه آنفاً.

- إن الكفاح ضد الأمية هو كفاح ضد الشروط، التى خلقتها؛ خصوصاً شروط التخلف الاقتصادى الاجتماعى.

- وإن روافد الأمية الثلاثة شرط لاستئصالها من جذورها، الذى لن يحدث فى ظل الشروط الراهنة للمجتمعات المتخلفة.

- كما أن دورنا فى هذا السياق يقلص حجم الأمية، ويسهم مع كفاح مواز فى مجالات اجتماعية أخرى كالعلاج والثقافة والإسكان والإنتاج والرياضة.. وغيرها مما يجعل من ظهور النتائج الإيجابية لمحو الأمية، وبما يمنع تدهور المجتمع وتحلله، وبضرب المثل للمهتمين بهذه القضايا فى اقتفاء أثرنا.

- ولذلك فالاهتمام بالمعلم الذى هو حجر الزاوية فى العملية شرط لنجاحها فهو الوسيلة بين الرؤية العلمية لقضية الأمية (وأسلوب وطرق التعامل معها) والدارس، والذى بأدائه الجيد لمهمته يكون قد نجح فى القيام بالدور المنوط به.

(إن دور المعلم، لا كمعلم فقط، ولا كمنقظ فقط، بل كقدوة للدارس فى طريقة التفكير، وفى السلوك والممارسة هو أحد أهداف العملية.. بحيث يشعر الدارس أن هذا المعلم ممثل لكثير من طموحاته، ويحاول الارتباط به كقيادة له.. وبقدر ما يكون ذلك الارتباط هدفاً، بقدر ما نكون قد ربطنا الهدف بالوسيلة بطريقة خلاقة فالمعلم وسيلة لمحو الأمية فى كثير من جوانبها، وفى الوقت نفسه بشكل ارتباط الأمى به وبقيمه ومسلكه هدفاً فى حد ذاته نصبو إليه.. ومن هنا كان التزاوج بين الوسيلة والهدف^(١٣).

كما أن ربط الحرف الأبجدى بالكلمة المنطوقة بالمشكلة الاجتماعية، التى تهم الدارس، ويعانى منها واحد من أدوات التعليمية، وترافق معه مزاجية بين الطريقة الجزئية والكلية فى تعليم الأبجدية.

- كما أن اعتماد أسلوب الحوار بين قطبى العملية المعلم والدارس حول جملة الأمور، والقضايا المرتبطة بحياة الأمن ومشكلاته يلعب دوره فى إطلاق الدارس فى التعبير عن إمكاناته وكفاءاته، يمكنه من الغوص خلف مظاهر الأشياء لإدراك ماهيتها الداخلية.
- ومن ناحية أخرى، يلزم التعامل مع حواسه جميعاً باستخدام الصوت والصورة، ورفع درجة تذوقه للأدب والفن، من خلال العملية باستخدام الأشعار والقصص القصيرة والأغاني.. إلخ.

وفيما يختص بالمادة التعليمية، يكون إصدار الكتب للدارسين مرتبطاً بأوضاعهم الاجتماعية بشكل مباشر (يختلف الصيادون عن الفلاحين، ويختلف البدو عن الحرفيين ويختلف العمال عن الباعة الجائلين) - وهكذا ومن ثم يلزم التفريق فى إصدار الكتب المناسبة لكل فئة منهم.

الاهتمام بالكيف فى إعداد المعلم وإنشاء الفصول.. وعلى غرار ما يفعل أساتذة البحث العلمى فى مجال الزراعة؛ حينما يستنبطون صنفاً جديداً عالى الإنتاج، ويرغبون فى نشر زراعته وتعميمه^(١٤).. فيلجئون لإنشاء حقل نموذجى باختيار قطعة أرض خصبة، وفلاح ماهر، ويستخدمون طريقة جيدة من طرق الزراعة - ليزرعوا المحصول، وعند حصاده يجمعون أهل القرية ليشهدوا بعيونهم الزيادة الحقيقية فى المحصول الجديد، مقارناً بالصنف الذى يزرعونه، وفى اليوم التالى يتهافت الفلاحون عليه للزراعة. كذلك يجب إنشاء فصل نموذجى إرشادى، فى كل موقع، يقوده معلم ماهر ببرنامج دراسى مناسب وعدد من الدارسين يحتاجون للعلم والمعرفة.. وهكذا.

لقد قام جهاز تنظيم الأسرة والسكان بالتعاون مع الأمم المتحدة ببحث تجريبى فى قرى وحدة محلية، ببرج نور الحمص، مركز أجا لمحافظة الدقهلية، يعتمد على منظور التنمية القاعدية فى الفترة من ١٩٧٥-١٩٧٩، وكان مشروع محو الأمية واحداً من مشاريع التنمية الثقافية، التى قطعت شوطاً محدوداً على صعود التنفيذ، أسهم فيه كاتب

(١٤) المرجع السابق.

المقال.. وصدرت عنه ورقة نظرية، تحمل هذه الرؤية لقضية محو الأمية، وكتابان أحدهما للمعلم والآخر للدارس بعنوان "أقرأ - أعرف - أتقدم".

وفى عام ١٩٨٠-١٩٨١، قامت الثقافة الجماهيرية بتجربة مشابهة لمحو الأمية بقرى ومدن محافظة الجيزة، وصدر عنها كتابان لمحو الأمية بعنوان "نقرأ - نفهم - نتحرر" يتضمنان الرؤية نفسها، ولكنها لم تدخل حيز التنفيذ لظروف بيروقراطية. باختصار كانت الجهود المبذولة لمحو الأمية فى مصر على الأسس العلمية غير التقليدية محدودة للغاية، ولا يمكن مقارنتها بالجهود التى قامت على الأسس التقليدية خصوصاً من زاوية الكم.

الأمية والممارسة السياسية

من المعروف لدى المهتمين بقضية تعليم الكبار أن الأمية تنتشر أساساً بين الفقراء، وتتركز فى الريف عنها فى الحضر، وبين النساء أكثر منها بين الذكور. ولما كانت الطبقات الفقيرة هى الطبقات المنتجة أساساً فى الصناعة والزراعة، وهى التى تشكل أغلبية السكان، ومن ثم تتحكم سلباً أو إيجاباً فى الإنتاج القومى، وفى القرار السياسى.. فإن محو أميتها بمعناه الأوسع يكتسب أهميته لهذين السببين:

وعلى سبيل المثال، فإن التطور التكنولوجى الهائل لوسائل الإنتاج يحتاج إلى مستوى مناسب من المعرفة، والقدرة على استخدام هذه الوسائل من جانب العاملين عليها والمستخدمين لها.. ولذا فإن الأمية بجانبها الأبجدى والوظيفى تشكل عقبة كئوداً أمام الاستجابة لهذا التطور، الذى يعتبر عاملاً حدياً فى رفع جودة المنتج، وفى تخفيض تكلفة الإنتاج بالدرجة، التى توفر وقت العمل والجهد المبذول وتتيح إمكانية أفضل للمنافسة فى السوق الدولى هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى، فإن هضم التطور التكنولوجى المتسارع يحتاج إلى معرفة بحدود كفاءة العامل فى مجالات الإنتاج المتعددة وآفاق تطوره المباشر، والمحتمل بما يمكن من تطبيق ما تحتاجه العمليات الإنتاجية فى مصر من تكتيك متقدم، وليس استيراداً عشوائياً لما يوفره سوق التكنولوجيا العالمى توفيراً للأموال ودرءاً للتبعية التكنولوجية.

كذلك فإن محو الأمية الثقافية بما يتضمنه من محو الأمية السياسية (التي تجتاح الأغلبية الساحقة من المواطنين، بمن فيهم الحاصلون على المؤهلات الدراسية العليا) سوف يمكن هذه الجماهير من إدراك هويتها الاجتماعية، وموقعها فى العملية الإنتاجية ودورها السياسى.. ويسهل لها أن تحدد موقفها من مختلف القرارات السياسية، وتشارك فى اتخاذها، كما سيمكنها من أن تنفذ إلى جوهر الظواهر بدلاً من التأثر بشكلها الخارجى، وأن تدرك كيف تدور آلية المجتمع بمختلف فئاته وطبقاته فى الظروف المختلفة، وفى الوقت نفسه ستلعب دورها فى امتلاك الوعي بمصالحها القومية فى مواجهة أعدائها وخصومها، وأن تتمكن من الحصول على حقوقها فى التعبير والاحتجاج. وأن تتسلح بأشكال التنظيم المختلفة النقابية والسياسية.. ومن هنا فإن دورها فى اتخاذ القرارات المصيرية، فيما يختص بالإنتاج والفكر والثقافة والسياسة سيكون دوراً بارزاً.. باختصار، سيكون حصولها على حقوقها الديمقراطية (اقتصادياً وفكرياً وسياسياً) أساساً لتسيير دفة المجتمع لمصلحة الجماهير الواسعة، وفى اتجاه قوانين التطور التاريخى لا ضدها.

إن امتلاك هذه الجماهير الواسعة لوعيها سيلعب دوراً مؤثراً فى منع تمثيلها فى البرلمان بعناصر معادية لمصالحها، وفى إيقاف أى انحراف لاستخدام السلطة، ويمنع الاستهانة بعقولها فى وسائل الإعلام المختلفة، وسيوقف جملة الدعاوى الفاشية والنازية فى مهدها.. بما يحمى المجتمع من مخاطر التحلل والتمزق.

إن ظهور الفاشية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا، كان لأسباب متعددة منها شمول الأمية السياسية لأعداد هائلة من الجماهير.. أنجرت وراء دعاوى التعصب القومى والعرقى التى فجرتها القيادة السياسية، وكان ذلك الانجرار ضد مصالحها.. وضد قوانين التطور التاريخى. لقد لعبت الأمية السياسية (فى إيطاليا وألمانيا) دورها الخطير ضمن عوامل أخرى ضد مصلحة الجماهير، على الرغم من انحصار الأمية الأبجدية والتوظيفية عن قطاعات واسعة منها.

ويجدر بنا أن نذكر أن ارتباط مثل هذه الجماهير بقضية مصيرية تفجر طاقاتها بكفاءة، يلعب دوره فى تجاوز كثير من هذه المزالق.. وعلى سبيل المثال فالشعب الفيتنامى برغم فقره المدقع وأميته الأبجدية والتوظيفية قد تمكن من خلال ارتباطه

بقضية مصيرية، هي قضية تحرره القومي من تحقيق انجازين الأول هو حصوله على استقلاله، الذى هو فى اتجاه قوانين التطور التاريخي والثانى هو محو أميته السياسية، وكلا الانجازين يشكلان أساساً مواتياً لمحو أميته الأبجدية والوظيفية، وانطلاقه لتسيير دفعة التنمية. ولا نجد ما نختم به رؤيتنا تلك ما هو أفضل من عبارة الأستاذ سار منشر (إذا كان الشعب سيذاً فلا بد من تدريبه على السيادة).